



خطبة صلاة الجمعة 29/11/2013 للشيخ الطيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالك

### (النفع المتعدّي أفضل من القاصر)

الحمد لله، الحمد لله ثمّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيّه وخليفه، خير نبيّ اجتبا، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: 19-20].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرّ رجلٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم بشعبٍ فيه عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٍ فَأَعْجَبَتْهُ لَطِيبُهَا، فَقَالَ: لَوْ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ، فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا» [رواه الترمذي].

قال أبو نصر التمار: إنّ رجلاً جاء يؤدّع بشر بن الحارث، وقال: قد عزمت على حجّ النَّافلة أفأمرني بشيء؟

فقال له: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفي درهم.

قال بشر: فأنيّ شيءٍ تبتغي بحجّك؟ اشتياقاً إلى بيت الله أو ابتغاء مرضاة الله؟

قال: ابتغاء مرضاة الله.

قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم أتفعل ذلك؟

قال: نعم.

قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديوناً يقضي دينه، وفقيراً يُلِّمُ شعثه، ومعيلاً يغني عياله، ومريئاً يتيم يُفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك الشُّرور على قلب المسلم، وإغاثة اللّهفان، وكشف الضر، وإعانة الضَّعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام.

عنون خطبة اليوم:

### (النَّفْعُ الْمُتَعَدِّي أَفْضَلُ مِنَ الْقَاصِرِ)

أيها الإخوة:

العمل نوعان: ضارٌّ ونافعٌ، والنَّافع نوعان: قاصرٌ ومتعدٍّ، القاصر: نفعه مقصورٌ على صاحبه، والمتعدِّي نفعه لصاحبه ويتعدّاه لغيره.

وقد قنَّ الفقهاء قاعدةً فقهيةً تقول: (المتعدِّي أفضل من القاصر).

ذكر هذه القاعدة الإمام السيوطي في (الأشباه والنظائر) وغيره، وقال ابن الحاج في المدخل: (ولا خلاف بين الأئمة في أنَّ الخير المتعدِّي أفضل من الخير القاصر على المرء نفسه، بشرط السَّلامة من الآفات التي تعتوره في ذلك).

ويقولون في شرح القاعدة:

النَّفْعُ الْمُتَعَدِّي: هو العمل الذي يصل نفعه للآخرين، سواء كان هذا النفع أخروياً أو دُنيوياً؛ فالأخروي: كالتَّعليم والدَّعوة إلى الله تعالى، والدُّنيوي: كقضاء الحوائج، ونُصرة المظلوم وغير ذلك. أمَّا النَّفْعُ الْقَاصِر: فهو العمل الذي يقتصر نفعه وثوابه على فاعله فقط، كالصَّوم، والاعتكاف وغيرهما.

ومن أصول هذه القاعدة:

حديث رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَيْنَ

أَمْشِي مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا» [رواه الطبراني في المعجم الصغير].

وقوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [رواه البخاري]، فيتعدّى هذا النّفع إلى الآخرين ولا يقتصر على نفسه فحسب، بل يسعى في تعليم غيره من النّاس.  
و عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَيْمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ» [رواه البخاري ومسلم].

### أيها الإخوة:

جاءني عبر نافذة الاستشارات في موقعي الالكتروني يوماً مَنْ يسأل يقول:  
تخرّجت في كليّة الطّب بمعدّل عالٍ يؤهّلني لمتابعة دراستي ودخول الدّراسات العليا، ثمّ جاء رمضان وتفرّغت فيه للعبادة فأحسست أنّي قد وجدت نفسي: صفت روحي ورقّ قلبي، وفي آخر رمضان خرجت مرّتين للجامعة وعدت وأنا أشعر بحجابٍ بيني وبين الله، وقد فارقتي شعور السّكينة الذي كنت أحسه، وصار عقلي مشغولاً بالأحداث التي شهدتها في خروجي، ولم أعد أخشع في صلاتي كما في السّابق، وجدت فارقاً كبيراً في صلاتي مع الله، هل تنصّحني بالتزام البيت والتّفرغ للعبادة؟ فالمكوث في المنزل يوافق هواي، وأنا مستعدٌّ للقيام به إذا ما أخبرتني أنّه الأفضل وأني أكسب به ثواباً، وإن كان والدائي يرغبان كثيراً في متابعة الدّراسة كي لا أتكر لجهد سنواتٍ ستُ قضيتها فيها، وسأصلي الاستخارة -بإذن الله- ولكن أرجوك أن تنصّحني، جزاك الله عني كلّ خيرٍ.

### أيها الإخوة:

لا ريب أنّ المرء عندما ترقى روحه، وتصفو نفسه تهيم على جسده وعقله، لأنّ لذة الرّوح أقوى وأدوم من لذتي العقل والجسد، لكنّ الموفّق من يحتكم في أموره كلّها للشّرع الذي يُعيد التّوازن للمرء لتحيا روحه، وينمو عقله، ويقوى جسده، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

[البقرة:143].

فكان جواب هذا الأخ في هذه القاعدة، التي هي عنوان الخطبة: النفع المتعدي أفضل من القاصر، فانشغالك بالعلم مع انضباطك بالشرع له من المنافع ما يفوق تفرغك للعبادة بعيداً عن الناس ونفعهم.

روى الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنها قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى الثَّمَلَةِ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتُ، لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» [رواه الترمذي].  
أيها الإخوة:

لئن كنّا محتاجين إلى النفع المتعدي دائماً، فنحن إليه في زمن الأزمة أحوج، ولا بُدَّ لكلِّ منا أن يجهد ويجتهد ليبدّل المستطاع من النفع للناس، فيغنم في هذه الشدة من البرِّ الكثير، ويجمع من الأجر العميم.

قرأت في الأربعين النووية الحديث السادس والعشرين وفيه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدُلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [رواه البخاري ومسلم].

فلحظت أنّ أكثر هذه الأعمال ذاتُ نفعٍ متعديّ:

- أن تُصلح بين اثنين نفع متعديّ.
- وأن تُعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه، نفع متعديّ.
- وأن تتكلّم بالكلمة الطيبة نفع متعديّ.
- وأن تُميط الأذى عن الطريق نفع متعديّ.
- أمّا الخطوات التي تمشيها إلى الصلّاة فنفع قاصر.

ذهبت أبحث عن روايات أخرى وشواهد لهذا الحديث، لأتذكّر أصنافاً من الأعمال النافعة المتعدّية النفع، أحثُّ نفسي على فعلها وأذكّرُكم بها؛ فوجدت الإمام ابن رجب الحنبلي قد سبق إلى

ذلك، فجمع كثيراً منها في كتابه الفريد: (جامع العلوم والحكم)، وها أنا أعرض عليكم آفاقاً من الأعمال المتعلّية النفع، يُمكنكم بذلها للخلق، نتقرب بها إلى الخالق، من حديث واحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم برواياته وشواهدة:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُحِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [رواه البخاري ومسلم].

- في رواية: قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «لِيَأْمُرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ لِيَنْهَى عَنِ مُنْكَرٍ»، قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ: «فَلْيَهْدِيَ سَبِيلًا»، قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «فَلْيَرْفَعْ عَظْمًا مِنَ الطَّرِيقِ»، قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَلْيُعِنِ ضَعِيفًا»، قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَلْيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» [رواه البيهقي والبخاري].

- وفي شواهدة من حديث بُرَيْدَةَ: «النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا، وَالشَّيْءُ تَحِيَهُ عَنِ الطَّرِيقِ» [رواه أبو داود].

- وفي شواهدة من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «وَعَزَلَ حَجْرًا عَنِ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ عَزَلَ شَوْكَةً، أَوْ عَزَلَ عَظْمًا» [رواه النسائي في السنن الكبرى].

- وفي شواهدة من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنها: «يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْقَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ»، قالوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ».

- وفي شواهدة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «وَالْحُمْلُ عَلَى الضَّعِيفِ صَدَقَةٌ» [رواه ابن حبان]، أي: عنه.

- وفي شواهدة من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «فَضْلُ بَصْرِكَ لِلْمَنْقُوصِ بَصْرُهُ صَدَقَةٌ، وَفَضْلُ سَمْعِكَ لِلْمَنْقُوصِ سَمْعُهُ صَدَقَةٌ» [رواه الطبراني في مسند الشاميين].

- وفي شواهدة من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «وَتُحِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَتِهِ، وَتَسْعَى بِشِدَّةٍ سَاقِيكَ مَعَ اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَحْمِلُ بِشِدَّةٍ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، فَهَذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» [رواه ابن حبان].

- «فَضْلُ بَيَانِكَ عَنِ الْأَرْزَمِ صَدَقَةٌ» [رواه أبو نعيم]، يعني: من لا يطبق الكلام، إمّا لآفةٍ في لسانه، أو لعجمة في لغته.

### ختاماً أيتها الإخوة:

أعجني وأضحكني حديث ابن حبان في صحيحه: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَالَ: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ»، قَالَ: فُكُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مَعَ الْإِيمَانِ عَمَلًا؟، قَالَ: «يَرْضَخُ مِمَّا رَزَقَهُ اللَّهُ» قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ مُعْدَمًا لَا شَيْءَ لَهُ؟، قَالَ: «يَقُولُ مَعْرُوفًا بِلِسَانِهِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ عَيِّيًا لَا يَبْلُغُ عَنْهُ لِسَانُهُ؟، قَالَ: «فَيُعِينُ مَغْلُوبًا» قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَا قُدْرَةَ لَهُ؟، قَالَ: «فَلْيَصْنَعْ لِأَخْرَقٍ» [أَخْرَقَ: أي جاهل بما يجب أن يعمل، ولم يكن في يديه صنعة يكتسب بها]، قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ أَخْرَقًا؟، قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: «مَا تُرِيدُ أَنْ تَدَعَ فِي صَاحِبِكَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ، فَلْيَدَعْ النَّاسَ مِنْ أَذَاهُ» فُكُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ تَتَسِيرُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا، يُرِيدُ بِهَا مَا عِنْدَ اللَّهِ، إِلَّا أَخَذَتْ بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» [رواه ابن حبان].

قال ابن رجب الحنبلي: (اشترط في هذا الحديث لهذه الأعمال كلها إخلاص النية). فلنجهتهد في سوق الخير إلى الخلق متنافسين على مرضاة الله، فإن النفع المتعدي أفضل من القاصر.

والحمد لله رب العالمين